Journal of Alasmarya University
Volume 23, December 2014

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثالث والعشرون، ديسمبر 2014

ثورة عمر بن حفصون
وآثارها على الدولة الأموية في بلاد الأندلس

د. عطيت محمد اللافي*

تمهيد

بمجرد انتهاء المسلمين من فتح بلاد المغرب بدأوا يتطلعون إلى فتح الجهة المقابلة له، المعروفة لديهم (بالبلاد الإسبانية)، التي لا يفصلها عنهم سوى مضيق جبل طارق[1]، فقرب العدوتين أثّر بشكل مباشر في تأثير المنطقتين إحداهما بالأخرى وفي جميع عصور التاريخ[2]، فنتج أحياناً الاشتراك معاً في تأطير أحداث تاريخية سلمية تعاونية أحياناً على شكل تبادل تجاري ونحوه، أو غزوات حربية استعمارية، أفضت إلى الاستيطان والتمركز في بلدان المغرب قاطبة من جهة البحر والعكس.

---

* كلية الآداب، جامعة المرقب.

1- كان يعرف أيضاً ببحر الزقاق، ثم عرف بجبل الفتح في مراحل متقدمة من عمر الإسلام في بلاد الأندلس، ويبلغ طوله حوالي ثمانين كيلومتراً، كما يبلغ عرضه في أضيق جهاته حوالي خمسة عشر كيلومتراً، ينظر: المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1998م، ص: 7. الفقي، عصام، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الشرق، القاهرة، ص: 35.

2- العدوة معناها الجانب أو الشاطئ. ينظر: العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص: 12.

تميز الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس بنوعٍ من السهولة واليسر، وذلك راجعٌ إلى قوة الدولة الإسلامية من جهة، وحالات الضعف والتردي السياسي التي كانت تمر بها دولة القوط الغربيين الذين استحوذوا على السلطة في إسبانيا منذ أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي من جهة أخرى[3].

الفتح والاستقرار

تولى المغاربة، قادةً ومقاتلين عمليات استكشاف بلاد الأندلس وفتحها، وربما ذلك راجعٌ إلى معرفتهم الجيدة بالبلاد من منظور قربهم منها وعلاقاتهم معها، فقد قاد طارق بن زياد الحملة الأولى بناءً على أوامر والي المغرب موسى بن نصير، والمكونة من «سبعة آلاف من المسلمين، جلُّهم من البربر والموالي، وليس فيهم عرب إلا قليل»[4]، فتمكنوا من تحقيق النصر والسيطرة على منطقة الجزيرة الخضراء أولى أراضي شبه الجزيرة الإيبرية، وذلك سنة: 92هـ/ 711م، ثم تم تزويده بخمسة آلاف آخرين، يُرجّح أنهم من المغاربة أيضاً[5]، وذلك لاعتبارات سياسية وأمنية، لعل من بينها عدم اختلاط العرب والمغاربة في عمليات الفتح الأولى حتى لا تحدث بوادر انشقاق وصراع على الغنائم في بلدٍ غني، يعج بالكثير من الخيرات، لاسيما أن القائد العام موسى بن نصير لا يزال ينتظر ما تسفر عنه نتائج هذه الحملة، التي كان النصر فيها حليف المسلمين في معركة «وادي لكة» قرب مدينة شذونة، واندحار فلول القوط بزعامة قائدهم لذريق سنة:

3- القوط الغربيين: هم أحد القبائل الجرمانية التي أطاحت بالإمبراطورية الرومانية، ودخلوا في صراع مرير مع القبائل الأخرى، فاقتصرت سيطرتهم على إسبانيا فقط منذ أن تولى ملكهم «تيوديس» عرش القوط سنة: (531 - 548)م. ينظر: سالم عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، 1997م، ص: 53 - 55.

4- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، نشر: محمد عزاب، دار الفرجاني للنشر، ليبيا، ط1:، 1994م، ص: 53.

5- السامرائي، خليل إبراهيم، وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط: 1، 2000م، ص: 29.

92هـ/711م[6].

توالت عمليات الفتح بعد ذلك، وسار موسى بن نصير على رأس جيش مكون من ثمانية عشر ألفاً، معظمهم من العرب حتى إن هذه الحملة عُرفت بـ« الطالعة العربية الأولى » التي استقرت في بلاد الأندلس وذلك في سنة: 93هـ/712[7]، وتم فتح مدن الأندلس الكبرى كقرطبة، وأشبيلية، وطليطلة وغيرها، ونتج عن ذلك تدفق الهجرات المغربية إلى القطر الجديد؛ يذكر المقري ذلك بقوله: « وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق وسعة المغانم فيها فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلحقوا بطارق »[8]؛ لأن بلاد الأندلس أصبحت « منذ أول الفتح ثغراً للمسلمين، فيه جهادهم ورباطهم ومدارج شهادتهم وسبيل سعادتهم »[9].

ومثلما كانت عوامل القوة ونشوة النصر تدفعان بالفاتحين الأوائل إلى توسيع رقعة دار الإسلام الجديدة في بلاد الأندلس، ومن ثم إلى سلطان الخلافة الأموية بدمشق، كان يرافقهم كذلك عوامل الضعف والانهيار المبكر التي ظلت كامنة منذ عمليات الاستقرار الأولى، تتقوى وتضعف حسب سياسة ولاة الدولة الأموية وأعدائها، وانتهت بها إلى المصير المحتوم الذي تربص بها طَوال هذه القرون الثمانية من عمر الدولة الإسلامية في تلك الأصقاع البعيدة، وكانت النتيجةُ انتهاء الإسلام ديناً ودولة معاً.

فالصراع العربي العربيُّ، المتمثل فيما بين القيسية واليمنية لم يكن ليهدأ حتى يقوم من جديد بين ولاة الدولة الأموية، ومرحلةُ الولاة التي أعقبت انتهاء فترة

6- بيضون، إبراهيم، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1980م، ص: 74.

7- فيلالي، عبد العزيز، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، دار الفجر للنشر، القاهرة، ط: 2، 1999م، ص: 40.

8- المقري أحمد، بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1:، 1988م، ص: 163.

9- ابن خلدون، عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج: 6، بيروت، لبنان، 1979م، ص: 189.

الفتح سنة: 95هـ/714م، حتى دخول عبد الرحمن الداخل -الأول- لبلاد الأندلس، وتأسيس الإمارة الأموية سنة: 138هـ/755م خيرٌ شاهدٍ على ذلك. فمرحلة الولاة هذه قد تعاقب عليها أكثر من عشرين والياً في مدة لا تتجاوز أربعة عقود من الزمن، تخللتها حروب دامية، دفعت بها صراعات موروثة منذ حتى قبل ظهور الإسلام، فضلاً عن الأحداث الجسام التي باعدت بين الحيين العربيين في عهد الإسلام نفسه؛ ليزداد هذا الصراع بين هاتين العصبتين، ويجد له مناخاً ملائماً ومهيئاً تماماً في بلاد الأندلس، حيث الخيرات المتنوعة من أراضٍ خصبة وممتلكات متنوعة وحياة غارقة في الملذات[10]؛ مثلما حدث مع الشاميين، وأغلبهم من العرب القيسيين الذين عبروا مع بلج بن بشر القشيري سنة: 124/هـ741م، وكان عددهم حوالي ثمانية آلاف من العرب وألفين من الموالي، حيث تمكنوا من الاستقرار في بلاد الأندلس بعد الانتصار على واليها عبد الرحمن بن قطن، سنة: 125هـ/742م[11].

هذا الصراع العربي لم يكن يخص العرب وحدهم بل شمل كذلك المغاربة شركاء فتح بلاد الأندلس؛ فهؤلاء كانوا يعدون أنفسهم أنهم لا يقلون شأناً عن العرب، الذين هم في نظرهم «أشبه بالملوك»[12]، من خلال امتيازاتهم المتمثلة في مراكز نفوذهم السياسي في الدولة وقطاعاتهم الزراعية التي امتلكوها؛ فالعرب كانوا «ينزلون في عمائر وقبائل وبطون وأفخاذ ...»[13]، على حين استقر

10- هذه المرحلة التاريخية من التاريخ الأندلسي مع قصر مدتها تُعدُّ من أصعب ما لاقاه المسلمون من محن وويلات، كان أغلبها نتيجة لنعرات قبلية، قادها الولاة وأتباعهم الذين كانوا ينتمون إلى إحدى الجدعين العربيين (مضري / قيسي أو يمني / ربيعي) سكان أهل الشمال والجنوب لشبه جزيرة العرب، أسهمت بطبيعة الحال الظروف الجغرافية للمنطقتين من تباعدهما، فأدى بهم دائماً إلى تضارب في المصالح والرؤى لحد نشوب الحروب بينهم، وقد شمل ذلك تقريباً كل دار الإسلام. والمصادر التاريخية وعلى اختلاف مشاربها حافلة بتلك الملاحم والبطولات لكل هذين الفريقين منذ حتى فترة قبل ظهور الإسلام.

11- ابن القوطية، أبوبكر محمد، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعارف، مصرف طارق، 1994م، ص: 81 - 82.

12- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 39.

13- المقري، مصدر سابق، ص: 274.

المغاربة بالمناطق الجبلية الوعرة، مثل: مرتفعات قرمونة وشعاب رندة وغرناطة، هذا فضلاً عن استقرارهم في مناطق الثغور الشمالية البعيدة والمجاورة للنصارى الإسبان[14].

فئات المجتمع الأندلسي وبوادر الصراع

كل هذا الصراع المبكر الذي تجسد على المسرح السياسي الأندلسي يجد له آذاناً صاغية ومناخاً خصباً للفئات الأخرى الذي تَكَوَّن منها المجتمع الأندلسي الجديد بُعيد الفتح، ولم يفلح ولاة الأمر وعلى مر تاريخ الإسلام عموماً، في صهر تلك الفئات في مجتمع واحد، يعلوه مصطلح الأمة الإسلامية الذي هو كفيل بإذابة تلك الأعراق والنعرات القبيلة التي ظلت طَوال الزمن وراء كثير من الضعف والتراجع، ولكن ذلك لم يكن يحدث إلا في فترات ضيقة مرتبطة ببقاء ذلك الأمير أو هذا الخليفة، ثم تعود الأمور إلى سيرتها الأولى.

إن عمليات الانصهار بين فئات المجتمع الأندلسي بخاصةً لم تجد من يشجعها أو يعمل على انتهاج سياسة ناجعة بشأنها، خاصةً وأن هناك فئاتٍ أو عناصر جديدة أصبحت من ضمن ذلك النسيج الاجتماعي والسياسي للمجتمع الأندلسي، وعاشت تلكم النعرات العصبية التي حمل لواءها العرب مع بضعهم بعضاً حيناً، وضد المغاربة أحياناً أخرى، واستفحل التعصب ليشمل بقية تلك الأجناس التي بدأت في اتخاذ المواقف والسياسات كرد جلي على هذه السياسة المقيتة التي كبلت النظام العربي الإسلامي، وربما يكونُ عدم مقدرة المجتمع الأندلسي على إيجاد حالة من التوازن السياسي والاجتماعي بين هذه الفئات ناتجاً عن وجود النعرات العصبية كما ذكر ابن خلدون، حين تعرض للعصبية بقوله: « إن الأوطان الكثيرة للقبائل والعصائب قلَّ أن تتحكم فيها دولة، والسبب في ذلك الآراء والأهواء وأن وراء كل رأي منها هوى عصبية تمانع دونها والخروج عليها في

14- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1988م، ص: 124.

كل الأوقات»[15]، وهذا ما حصل فعلاً في بلاد الأندلس، إذ بالنظر إلى الخارطة السياسية والاجتماعية التي تكونت غداة الفتح نجد أن هنالك تقسيمات اجتماعية بدأت تبرز، ولعل أبرزها فئة المولدين الذين نشأوا من خلال تزاوج الفاتحين بالنساء الإسبانيات، وأصبحوا هؤلاء الأبناء مسلمين، ولكنهم لم ينصهروا تماماً في المجتمع الأندلسي، فقد ظلت القومية الوطنية لديهم تظهر من حين لآخر، وخاصةً مع تشدد بعض أمراء الدولة الأموية ضدهم[16].

وإلى جانب فئة المولدين كأبرز فئة اجتماعية كبيرة تشكل منها المجتمع الأندلسي بعيد الفتح والاستقرار، نجد المستعربين أو العجم، وهم النصارى الإسبان الذين عرفوا بـ(أهل الذمة أو المعاهدون) أيضاً، بقوا على دينهم نظير التزامهم بدفع الجزية وتطبيق ما تعاهدوا عليه مع المسلمين جرياً على النهج ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، وكان لهم رئيس في كل مدينة يعرف بالقومس، كما كان لهم قاض نصراني يفصل في منازعاتهم، يعرف بقاض العجم[17]، وكثيراً ما تحالف هؤلاء مع المولدين في ثورتهم ضد السلطة الأموية؛ لكونهم أقرب الفئات الاجتماعية

15- أبو زيد عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق، حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، ط: 1، 2004م، ص: 213.

16- كان أيضاً أغلب ولاة بني أمية وأمراؤهم ثم خلفاؤهم من أمهات إسبانيات وآباء عرب، فهم منقسمون إلى ثقافتين عريقتين، إلا أن عروبتهم وإسلامهم كانت السمة الغالبة عليهم في كثير من الأحيان، وهذا ما شاهده ابن حزم بنفسه من حيث تأثر هؤلاء وسماتهم من جهة أمهاتهم وأخوالهم في الشكل والثقافة معاً، بقوله: «أما جماعة بني مروان وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لدن دولة الناصر إلى الآن، فما منهم إلا أشهر نزاعاً إلى أمهاتهم حتى صار ذلك فيهم خلقه»، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، اعتنى بطبعه: محمد أمين، دار الفكر العربي، بيروت، ط: 1، 1995م، ص: 50، كذلك ينظر: حوالة، يوسف أحمد، «المرأة في البلاط الأموي في الأندلس»، دراسة في سيرتها ودورها السياسي والاجتماعي والثقافي، حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، العدد: 24، 2004م، ص: 56 - 61.

17- يجب التنويه بأن مسيحيين الأندلس الذين فضلوا البقاء على نصرانيتهم قد مارسوا بكل حرية شعائرهم، وطقوسهم الدينية في الكنائس وغيرها، وهذا حق قد كفله لهم الإسلام بعد ما أدوا ما عليهم من واجبات إدارية وشرعية كالجزية وغيرها من الواجبات حتى ينالوا حقوق المواطنة في دولة الإسلام. ينظر: ابن القوطية، المصدر السابق، ص: 73 - 74.

إليهم ضد المسلمين عموماً، فهم أبناء عمومة لأمهات المولدين وأخوالهم، ويرتبطون معاً بصلة الدم والأمجاد القومية الإسبانية على الرغم من أنَّ بعضَهم حَسُن إسلامه، إلا أنهم ظلوا أسرى تلك الأصول، وأسهمت بشكل مباشر سياسة التعصب القبلي التي سار عليها أغلب أمراء بني أمية في تنمية الروح الوطنية لديهم أسوةً ببقية الأجناس الأخرى[18].

أيضاً تشكل المجتمع الأندلسي من عنصر آخر عرف بـ(المسالمة)، أي: الذين دخلوا في الإسلام وأصبحوا ضمن أفراد الأمة الإسلامية نظرياً، ولكنهم من الناحية الواقعية العملية لا يتساوون مطلقاً مع العرب، فهم مثلاً يحتفظون فقط بثلث الأراضي والمزارع التي يستقرون فيها إلى جانب ما تنتجه حقولهم أيضاً. أما باقي الثلثين فتذهب إلى المستوطنين الجدد الذين عرفوا بـ(الطالعة الشامية) كما أشرنا سابقاً[19]، وهذا بدوره قد دفع بهؤلاء للتربص بالسلطة الأموية متى سنحت الظروف لذلك؛ لأنها حرمتهم أموالهم وخيراتهم على الرغم من اعتناقهم الإسلام، بدافع نيل المساواة أو حباً واقتناعاً بالعقيدة الإسلامية، هذا إلى جانب عنصر الموالي وهم خليط من عدة أجناس متنوعة، عرب وغير عرب من المشرق والمغرب اصطحبهم بنو أمية وأصبحوا عصبةً لهم، فقد استعانوا بهم ضد تمرد العرب من يمنية وقيسية على السلطة الأموية، وذلك بإحلالهم في الجيش وتوليهم المناصب الوزارية الأخرى بدلاً من العرب والمغاربة، الذين لا يقلون شأناً منهم في مناهضة سلطة الإمارة التي تميز بها العصر الأموي عموماً[20].

18- سنلاحظ ذلك بجلاء مع اندلاع ثورة عمر بن حفصون، فالكثير من الذين انضموا إليها كانوا من مناطق ومدن أخرى لا تجمعهم سوى قوميتهم ضد العرب والأمويين عموماً.

19- ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973م، ج/1، ص: 104.

20- كان أول ذكر للموالي كقوة عسكرية وعلاقتهم ببلاد الأندلس في حملة كلثوم بن عياض، جاءوا إلى بلاد المغرب بأمر من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك لإخماد ثورات المغاربة، وذلك سنة: 123هـ/741م، إلا أن هزموا في معركة بقدورة والإشراف، فذهبوا إلى بلاد الأندلس، ويذكر ابن القوطية أعدادهم التي كانت مع تلك الحملة، قوله: « ... وانخذل بلج بن بشر في عشرة آلاف حتى نزل بمدينة طنجة، منهم ألفٌ مولى وثمانية آلاف عربي»، وهو =

هذا الثالوث الاجتماعي / السياسي الذي تشكلت منه بلاد الأندلس في البدايات الأولى بين قوى ثلاثٍ متصارعة؛ من عرب، ومغاربة، وموال[21]، لم يكن فقط مصدراً للصراع وإثارة الفتن ضد سلطة الأمير أو الخليفة فيما بعد، وتعامل معه الآخرون وفق مصالحهم، وذلك بتغليب فريق على آخر، وليس العمل على صهرهم في بوتقة واحدة كأمة إسلامية، الأمر الذي أفسح المجال للموالي للسيطرة على الأمراء والخلفاء، في عملية حتى توليهم السلطة، فاتجه الآخرون إلى استجلاب عنصر آخر عرف بـ(الصقالية)[22]، تولى الكثير منهم قيادات الجيش وقمع الثورات من العناصر الأخرى، ولم تلبث بلاد الأندلس بعد انتهاء الخلافة الأموية، سنة: 422هـ/1031م. أن قُسِمَتْ بين هذه القوة، إماراتٍ ودولاً سياسية، استولى المغاربة على منطقة الجنوب؛ ربما لقربها من مواطنهم الأصلية ببلاد المغرب، وحاز العرب وسط البلاد، على حين أسس الصقالبة ممالكهم في الشمال، وعُرفت هذه المرحلة بمرحلة (ملوك الطوائف).

=

محاصر بتلك المدنية الأمر الذي دفعه إلى الجواز إلى بلاد الأندلس ودخولها بالقوة. ينظر: ابن القوطية، المصدر السابق، ص: 81 – 82.

21- لعب هؤلاء الموالي أدواراً سياسية كبيرة في بلاد الأندلس، فمنذ البداية كان لهم الفضل الأكبر في نجاح سيطرة عبد الرحمن الأول، -صقر قريش- في قيام الدولة الأموية ببلاد الأندلس، فلقوا نظير ذلك المناصب العسكرية والإدارية والمالية طوال عصر الإمارة، وأصبحوا في مركز اجتماعي أعلى حتى من العرب والمغاربة شركاء الفتح والاستقرار. للمزيد ينظر: مؤنس، حسين، فجر الأندلس، دار الرشاد، ط: 3، 2005م، ص: 228 – 231.

22- كانت كلمة « صقلب Slaveninu » وجمعها صقالبة عند الجغرافيين العرب في المرحلة الوسيطة يُقصد بها تلك المجموعات من الأجناس المختلفة، كانت تعيش في الأراضي الواقعة على حدود الجزر، بين الأستانة والبلغار، أما في بلاد الأندلس فهذه الكلمة تشير إلى العبيد الأوروبيين الذين أصبحوا يشغلون المناصب الرفيعة والحرس الخاص للأمراء والخلفاء الأمويين، وهم في الأصل استرقوا أثناء الحروب التي دارت بين المسلمين والمسيحيين، وقد لعب اليهود دوراً مهماً في عمليات خصيهم في مدينة فردان بفرنسا ومن ثم إرسالهم إلى بلاد الأندلس للعمل في البيوت والمهن العسكرية الأخرى. للمزيد، ينظر: سرنلي، كليليا، ظهور الصقالبة وأثرهم في الأندلس، القاهرة، 1961م، ص: 2-13، لطفي، عمر مصطفى، تاريخ لصقالبة في الأندلس « دراسة تاريخية جديدة »، بيروت، لبنان، ط: 5، 2007م.

أردنا من إبراز هذا المخاض السياسي المتشعب وإجماله الوقوف على الأسباب الحقيقية وراء تحالف ثورة أهل البلاد الأصليين من معاهدين / عجم ومولدين وغيرهم التي كادت أن تسقط دولة الإسلام مبكراً، والتي لم يبق منها إلا العاصمة قرطبة، فلم تسلم هي الأخرى من المحاصرة في العديد من المرات؛ ولعل أكبر هذه الثورات وأقواها هي ثورة عمر بن حفصون التي كانت بهذه القوة والاتساع بسبب تهيئ الظروف المتمثلة في التمزق السياسي والانحطاط الاجتماعي الذي اعترى دولة الإمارة الأموية، وهي المرحلة الثالثة من عمرها: 238 - 300هـ - 852 - 912م، وعرفت أيضاً بمرحلة الفتنة الأولى تمييزاً لها عن مرحلة الفتنة الثانية التي أصابت دولة الخلافة بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله سنة: 366هـ/977م واستيلاء الحاجب المنصور على الخلافة وتأسيس الدولة العامرية في ظل الخلافة الأموية[23].

تعد ثورة ابن حفصون من أطول الثورات عمراً وأشرسها مقاومةً، فقد استمرت نحو خمسين عاماً منذ تفجرها: سنة 267هـ 880م في عهد الأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن الأوسط، مستغلة في ذلك حالة الضعف والتشتت التي اجتاحت البلاد واستمرت وطالت ثلاثة أمراء من بعده، ولم يتم القضاء عليها إلا في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر: 278 - 350هـ/891 - 961م، الذي تمكن بعد حروب طويلة من القضاء على الثائرين والاستيلاء على حصونهم ومدنهم التي استقلوا بها، فتغيرت الخارطة السياسية لدار الإسلام باتساعها، وأعاد هيبة الدولة الأموية ومكناتها، ونال بحق شرف الخلافة سنة: 316هـ/929م[24].

23- اعتاد المؤرخون على تقسيم فترة الإمارة الأموية ببلاد الأندلس إلى ثلاث مراحل تاريخية، نظراً لتميزها عن بعضها البعض من حيث القوة والاتساع، وبناء الدولة، فالمرحلة الأولى هي قيام الإمارة، والثانية تزامنت مع انتهاء حكم عبد الرحمن الأوسط، والثالثة التي عرفت بالفتنة الأولى أو عصر دويلات الطوائف، وذلك نظراً لحالة التشرذم والاضمحلال التي أصبحت عليها دولة الأمويين، بحيث لم يتجاوز سلطانهم في بعض الفترات العاصمة قرطبة، وبقية البلاد مقسمة بين الثوار، وحكم خلال هذه الفترة التاريخية ثلاثة أفراد، وهم على التوالي: محمد بن عبد الرحمن الأوسط، والمنذر بن محمد، وعبد الله بن محمد.

24- خاض عبد الرحمن الثالث حروباً كثيرة منذ توليه الإمارة، فتمكن من القضاء على الثوار =

هذه الثورة العارمة والتي اتخذت من المناطق الوعرة كالجبال والهضاب حصوناً لها، ظهرت بفعل عوامل كانت كامنة في المجتمع الأندلس منذ عمليات الفتح والاستقرار، نمت وتطورت كما ألمحت من قبل إلى هذه الثورة، ولكن زعيمها ابن حفصون يختلف عن باقي الثوار الآخرين، فهو لم يعدم وسيلة ما تساعده على مواصلة وتقوية ثورته إلا استعملها لدرجة تنصله من الإسلام، واعتناقه للمسيحية، حتى يضم إليه بقية الشرائح الناقمة على الأمويين من أهل الذمة[25]، فاتخذت ثورته الطابع القومي للإسبان، وأسست لمبدأ عمليات الاسترداد (Recnguista) للوطن القومي ضد من عدتهم غاصبين له، هذا فضلا عن تحالفاته مع بعض حكام ولايات بلاد المغرب، كالأغالبة والأدارسة، والرستوميين، ومن بعدهم الفاطميين الذين نادى بالدعوة لهم قبيل تنصره[26].

أوضاع بلاد الأندلس قبيل اندلاع الثورة

ذكر ابن الخطيب[27]، واصفا دولة بني أمية غداة ثورة ابن حفصون، بقوله: « والثوار في دول بني أمية متعددون، شقيت بهم الملوك، وتنغصت بهم الخلفاء،

=

والمناوئين واسترجاع جميع المدن والأقاليم إلى سلطان الإمارة الأموية، هذا ويصف لنا ابن الخطيب أحوال بلاد الأندلس غداة تولي عبد الرحمن الناصر، بقوله: « وتصيرت إليه الخلافة، وقد تحيف النكث أطرافها واقتسمها الثوار ... ولم يبق منها إلاَّ ظهر منبر قرطبة». أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق، ليفي بروفسال، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2004، ص: 27. ينظر: ابن حيان، المقتبس، تحقيق، ب. شالميتا، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، كلية الآداب، الرباط، ج/5، ص53-62. إيمان محمود محمد، حركات المعارضة في الأندلس خلال عصر الإمارة، بيروت لبنان، 2005، ص2-5.

25- خاطب ابن حفصون سكان مدينته ريه وما جاورها عند خروجه على الأمويين والمناداة بالثورة ضدهم خاطبٌ وطنيٌ تسوده الروح القومية الباقية لدى الكثير من شرائح المجتمع الأندلسي، فهو يقول لهم: « طالما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحملكم فوق طاقتكم، وأذلتكم العرب واستبعدتكم، وأنا أريد أن أقوم بثأركم وإخراجكم من عبوديتكم ...». ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، ح. س. كولان، ليفي بروفنسال، ج: 2، دار الثقافة لبنان، بيروت، ط: 5، 1998، ص114.

26- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 32.

27- المصدر السابق نفسه، ص: 35 - 36.

واضطروا إلى مسالمتهم تارة، ومحاربتهم تارة أخرى» كما يفسر ابن الخطيب أيضاً، كثرة هؤلاء الثوار في كل مدن الأندلس التي استقلوا بها كالمغاربة والعرب، والمولدين، أنها كانت بسبب مقومات عديدة عملت على إطالة عمر هذه الثورات، كمنعة البلاد وحصانة المعاقل، وبأس وقوة وتحالفهم مع النصارى؛ وزاد من تفاقم الأمور التدمر الاقتصادي، حيث شهدت بلاد الأندلس خلال القرن الثالث، وخاصة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط: [238هـ - 273هـ/ 852 - 886م] سنوات متتالية من القحط والمجاعة، وهو ترتب عليه هلاك الكثير من الناس وهجرانهم لمناطقهم، وذلك في سنة: 260هـ/873م، أي: قبيل ثورة ابن حفصون بسبع سنوات[28].

عمل عمر بن حفصون على استغلال أوضاع المولدين الاقتصادية التي تدمرت نتيجة للكوارث الطبيعية، فهم يشكلون السواد الأعظم من الفلاحين والزراع المرتبطين بالأرض[29]، بالإضافة إلى ما لقوه من تعسف من السلطة الأموية بخصوص ضرورة توفير ثلث أموالهم لها، على الرغم مما أصابهم من قحط وغلاء في المنتوجات[30]، وعمل بعض العمال إلى أخذ النصف من انتاجهم حتى عرفوا بالمناصفين[31]، هذا إلى جانب نظرة أو تصنيف العرب وبالأخص المتعصبون منهم إلى المولدين بنوعٍ من الازدراء والاحتقار[32].

هذا التصنيف لم يكن صادراً فقط من عوام الناس وخاصتهم، وإنما طال هذا الأمر حتى الأمراء الأمويين، فهذا الأمير محمد الذي تفجرت ثورة المولدين في أواخر عهده يقتصر وظائف دولته على أتباعه من الموالين له عاداً فئة المولدين من الدهماء وعوام الناس الذين لا يؤتمن جانبهم[33]، فهم « كانوا بعد اندماجهم في

28- ابن حيان، المصدر السابق، ج: 2، ص: 343.

29- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، نشرها، لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001، ص: 499.

30- ابن حبان، المقتبس، تحقيق، إسماعيل العربي، بيروت، لبنان، ص: 89.

31- ابن القوطية، المصدر السابق، ص: 86.

32- ابن الابار، الحلقة السيراء، تحقيق، حسين مؤنس، القاهرة، ج1، ص: 68.

33- ابن حيان، المصدر السابق، تحقيق، مكي، ص: 144 - 145.

المجتمع الأندلسي أشد تعصباً من النصارى ضد المسلمين الخلص أنفسهم»[34].

أثرت عمليات التعصب ضد المولدين في علاقاتهم بالدولة الأموية، فقاموا بحركات معارضة مسلحة ضدها، ومثلت مدينة طليطلة كعاصمة للقوط ملاذاً للثوار والساخطين على سياسة الأمراء (والإستقراطية) العربية التي حازت على مدخراتهم، وبدأ يتسع نطاق الفوارق الطبقية بينهم، فأيقظ لديهم الشعور القومي كجنس أسباني احتضنته مدينة طليطلة التي كان يقطنها القسم الأكبر من النصارى الإسبان المتحمسين للدين المسيحي؛ لذلك لم يتأخروا عن إمداد المولدين والتحالف معهم ضد السلطان الأموي، ولهذا نجد عمر بن حفصون يخاطب الطرفين منهم، المولدين والمعاهدين قائلاً: «طالما عنف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحمّلكم فوق طاقتكم، وأذلكم العرب واستبعدتكم، وأنا أريد أن أقوم بثأركم، وإخراجكم من عبوديتكم»[35].

هكذا يتبين لنا أن المجتمع الأندلسي كان يحوي العديد من التناقضات الاجتماعية منذ أولية الفتح، وازدادت تفاقماً خلال مرحلتي الولاة والإمارة معاً. وقد أسهم بلا شك ولاةُ الأمور في المرحلتين على استفحالها لدرجة التعصب إسوة بالعرب والمغاربة، فهددت الجبهة الداخلية للبلاد، وأصبحت سلطة الأمير لا تتعدى أحياناً أرباض العاصمة قرطبة التي ظلت محاصرة وآليةً للسقوط وانتهاء أمر الإسلام مبكراً في تلك الأصقاع البعيدة.

عمر بن حفصون، نشأته وبداية ثورته

تنحدر أسرة عمر بن حفصون من الأصل القوطي، أسلم جد والده جعفر في بداية فتح بلاد الأندلس وصار من ضمن فئة المسالمة الجدد؛ امتهنت أسرته حياة الزراعة بالقرب من مدينة (مالقة) في جنوب البلاد[36]، ثم انتقلوا إلى جنوب

34- Simonet, Fransisco, Histore de los mozarabes de Espana, Vol, 1. Madrid, P363

35- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص: 114.

36- ابن حيان، المصدر السابق، تحقيق: إسماعيل العربي، ص: 76.

شرق مدينة (رندة) واستقروا في المناطق الوعرة، حيث الجبال الشاهقة، وأشهرها جبل ببشتر التابع لكورة مدينة (رية) معقل هذا الثائر وملاذه الأخير طوال ثورته[37]، وذلك نظراً لما لهذا الجبل من تحصينات عسكرية ساعدته في بناء الخنادق وتكوين الجيوش للانقضاض على سلطة الإمارة الأموية، لذلك اتسمت حروبه بالكر والفر في ميدان القتال حيناً، والتسليم والمعاهدة لفترات قليلة، ثم الخديعة ومواصلة الحرب حيناً آخر.

بدأت ثورة ابن حفصون مثل غيرها من ثورات المولدين وحلفائهم النصارى المعاهدين، ونصب نفسه زعيماً لهم، ليس فقط ضد أمراء بني أمية فحسب، وإنما ضد العرب والمسلمين عموماً فيما بعد، كثورة اجتماعية وسياسية ضد التعصب العنصري، مستغلة الأزمات الاقتصادية التي مرت بها البلاد وعجزت الإمارة على تلافيها غداة الثورة[38]، هذا من جانب، أيضاً زاد من هذا التذمر للمولدين وحلفائهم كأسباب رئيسية فجرت هذه الفتنة الأولى الذي ندرس أعظم ثوراتها وأشملها، أقدامُ الأمراء الأمويين على السماح للعرب والمغاربة في تأسيس عصبيات لهم في المدن التي يقطنون فيها ضد الجنسيات الأخرى وخاصةً في مدينة (طليطلة) التي كان يقطن فيها أكبر فئتي المولدين والنصارى[39]، ووصلت أعداد أمراء هؤلاء العصبيات في بعض المدن إلى اثني

37- حصن ببشتر من أمنع حصون الأندلس، بينه وبين مدينة قرطبة ثمانون ميلاً، وتحاط به الكثير من الأنهار والقرى الآهلة بالسكان، كما يحتوي على عددٍ من الكنائس والأديرة، ينظر: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، 1980م، ص79.

38- كان العامل الاقتصادي ولا يزال وراء الكثير من الثورات، فالسنوات التي كانت قبل قيام هذه الثورة مليئة بالمحن الاقتصادية التي أدت بدورها إلى الفاقة والجوع وانتشار حركات الصعلكة وتلاشي الأمن وبداية انهيار هيبة وحزم الإمارة الأموية، ينظر: أمثلة متعددة على ذلك في كتب النوازل وغيرها، الونشريني، أبو العباس أحمد، المعيار والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقيا والأندلس، إشراف: محمد صبحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981م، ص: 113 - 137. الخشني، محمد بن حارث، قضاة الأندلس وعلماء أفريقيا، نشر: السيد عزت العطار، 1952، ص: 103.

39- ابن حيان، المصدر السابق، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط1، =

عشر رئيساً، كنوع من سياسة تغليب طرف على آخر، اتبعها الساسة الأمويون عندما يستشعرون تكوين نواة ضدهم، فعملوا على زيادة تفاقم الأمور الحروب بين العرب والمولدين في الكثير من مدن الأندلس، وحصل الأمر نفسه أيضاً إبان استقرارهم الأول في شبه الجزيرة الأيبرية، ولكن هذه المرة بين العرب أنفسهم، مضر وربيعة وبين هؤلاء والمغاربة، فهي بمثابة الفتنة المؤسسة لبقية الفتن الأخرى التي لحقت، وكانت نبراساً لبقية الأجناس الأخرى فيما بعد؛ لذلك حددها ابن حيان بقوله: «وكان ابتداء أهل الجزيرة وانبعاثها بالمعصية بين اليمانية والمضرية، فأطلق بعضهم على بعض الغارات واستحلوا الحرمات وتخلقوا بأخلاق الجاهلية واتخذوا الحصون والمعاقل»[40]. ويمكن تقسيم ثورة ابن حفصون إلى مراحل، بحسب مواجهة كل أمير لها وتطورها واتساعها والنتائج التي خلقتها، وهذا بيان لهذه المراحل.

أولاً: عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط: [238هـ 852م/272هـ 886م]

يذكر المؤرخون رواية لا تخلو من الطرافة تتعلق بشخصية عمر بن حفصون[41]، ومفادها أنه كان رجلاً حاد الطبع مؤدياً للآخرين، فتم عقابه من طرف عامل مدينة (رية) لفعلٍ اقترفه ففر هارباً إلى بلاد المغرب، حيث بلاط الرستوميين بالمغرب الأوسط، وذلك سنة: 267هـ 880م، ومكث هنالك أكثر من شهر التقى خلالها مع أحد الناقمين على بني أمية، فسأله عن حصن ببشتر المنيع[42]، ونصحه بالعودة إليه والتحصن فيه ووعده بنجاح الثورة على الأمويين منه[43]، فلاقت هذه الدعوة استجابة منه، وبالفعل عاد مسرعاً وجمع الأنصار من حوله، وعلى الأرجح أن هذه القصة حتى وإن حصلت لا تضفي شيئاً سوى أنها تضمن نجاح ثورة المولدين وتباركها لدى اتباعها الذين التحقوا بها فيما بعد، وهذا

=
1995م، ص: 73.

40- المصدر السابق، ص74.

41- ابن القوطية، المصدر السابق، ص: 125.

42- ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص: 104.

43- ابن القوطية، المصدر السابق، ص: 125 - 126.

نوعٌ من التأسيس العقائدي لنجاح أية ثورة واستمرارها لدى مؤيديها.

شرع ابن حفصون بالثورة على الأمويين بعد ما اجتمع حوله مجموعة قليلة من الساخطين على بني أمية في مدينة (رية) وتمكن من هزيمة عاملها عامر بن عامر، ثم أخذ في توسيع رقعة سيطرته فانضمت إليه الكثير من القرى والمعاقل، فبدأ في استبداد الأمن ورد المظالم لأهلها، وعقاب قطاع الطرق والمجرمين، في الوقت الذي وقفت فيه « إمارة قرطبة عاجزة لا تحرك ساكناً »[44]، فشعر الناس بنوع من الأمان الذي كان مفقوداً، فانتشر صيته ومكانته وراسلته الكثير من فئات المولدين والعجم؛ لأنه أظهر « الغيرة حافظاً للحرمة ...، ولقد كانت المرأة في أيامه تجيء بالمال والمتاع من بلد متفردة لا يعترضها أحد ...، وكان يأخذ الحق من ابنه ويبر الرجال ويكرم الشجعان »[45]، وهو ما دفع الأمير محمد إلى مهادنته وإعطائه منصباً مهماً في الجيش بقرطبة، فوافق هذا الأخير، ربما للوقوف بجلاء على مجريات الأمور في عاصمة الإمارة، ثم هرب وعاد إلى حصونه ونادى بالثورة مرةً أخرى فحاصره المنذر ابن الأمير محمد أياماً ثم فك الحصار عليه عندما جاءه خبر وفاة والده سنة: 273هـ/886م، وعاد إلى قرطبة، وهو الأمر الذي استغله ابن حفصون في إعادة ترتيب صفوفه وسياساته[46].

دور مدينة طليطلة وتحالف الفقهاء مع الثوار

مثلت مدينة طليطلة رمزاً للثورة على الأمويين، بل منذ الوجود الإسلامي ببلاد الأندلس، كونها عاصمة للقوط القديمة السياسية، والدينية على المذهب الكاثوليكي، الأمر الذي جعلها ملاذاً للناقمين من المولدين والمستعربين النصارى من جهة، والثائرين والفارين من المسلمين ضد أمراء بني أمية من جهةً أخرى. ففي عهد الأمير الحكم بن هشام انفصلت مدينة طليطلة عن العاصمة قرطبة، فأعد لهم الحكم خطة عسكرية تمكن من خلالها إحلال مجزرة عظيمة بحق أهلها

44- ابن خاقان، مطمح الأنفس في ملمح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق: محمد شوابكة، دار عمار، ص39.

45- ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 172.

46- ابن الخطيب، أعملا الأعلام، ص: 23.

عُرفت بوقعة الحفرة، وذلك سنة: 181هـ/797م[47]، ومن ثم لم ينس المولدون والنصارى عموماً تلك المآسي التي اقترفت بحقهم، فعمل ساسة المدينة وكبراؤها على تعبئة ثورة ابن حفصون ومساندتها ليس في مدينة قرطبة فحسب، وإنما في الكثير من أقاليم البلاد بحكم مكانتها السياسية والدينية.

أيضاً أسهم الفقهاء المسلمون الفارون والقاطنون بهذه المدينة «طليطلة» في مباركة هذه الثورة كونها ثورة على الفساد، والظلمة من الولاة والأمراء الأمويين. فالفقهاء المالكيون بعد إحلال هذا المذهب ببلاد الأندلس بدلاً من مذهب الأوزاعي، مذهب أهل الشام، وتبنيه من قبلهم أصبحوا يمثلون الصفوة السياسية الأولى، فهم بدورهم من أقنع الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل به فحازوا على مكانة مرموقة، مكنتهم من الاستحواذ على مكانة سياسية واقتصادية هامة[48].

هذا الدور الذي لعبه فقهاء المذهب الجديد في إقناع أميرهم هشام به حتى إن الأخير عند وصفهم له به قال: «وددت أن الله زين موسمنا به»[49]، لم يمر عليه وقت حتى تفاجأ هؤلاء الفقهاء بسياسة خلفه في الحكم ضدهم، فهذه السيطرة لم تتوافق مع شخصيته القوية الرافضة لوصايا رجال الدين، فسعوا هؤلاء إلى شحن الناس ضده وركزوا على الطبقات الفقيرة منهم، فوجدت دعوتهم صدىً واسعاً في مناطق النواصي أو الأرباض المعدومة في مدينة قرطبة، وأكثرها كان من المولدين، ولم تلبث أن تحولت إلى حركة سياسية بزعامة الفقهاء، فتم الظفر

47- تفاوتت أعداد القتلى في المعركة، فبعض المؤرخين يجعلهم خمسة آلاف، وهذا مبالغ فيه كثيراً، والراجح أنهم لا يتجاوزون السبعمائة شخص فأقل، ينظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج: 2، ص: 104.

48- كان الفقهاء ولا يزالون مصدراً للكثير من الثورات والنعرات القبلية، ولا يكاد يخلو عهدٌ من العهود وإلا لهم فيه صولة، ولكنهم ليسوا في المقدمة، وإنما يكونون المحركين والموجهين لعوام الناس ودهمائهم؛ فالبعض من فئة الفقهاء دائماً في وفاق دائم مع السلطة الحاكمة، فهم في وفاق دائم مع الحكام ما دامت أيادي الآخرين سخية بشأنهم.

49- مجهول المؤلف، المصدر السابق، ص: 111.

بالكثير منهم أمام دار الخلافة، وذلك سنة: 189هـ/805م[50].

هذه الحادثة كانت سبباً مباشراً أيضاً في ثورة أهل الربض بعد ذلك سنة: 202هـ/818م، ونصرتهم كذلك لثورات المولدين بزعامة ابن حفصون، هذا إذا ما أضفنا أن مدينة طليطلة قد استقبلت أخوة الأمير هشام، سليمان وعبد الله المعروف بالبلنسي اللذين ثارا عليه إبان توليه الحكم بدلاً منهما، ووجدا في هذه المدينة الدعم والمؤازرة من الفئات الساخطة على الأمويين[51].

هكذا إذن لاقت ثورة ابن حفصون دعماً مؤزراً من مختلف الجهات التي لها مصلحة مباشرة في إسقاط حكومة قرطبة، فبدأت الحصون والمعاقل تسقط في حوزته في مدينتي البيرة وجيان، فأعدّ له الأمير المنذر حملة عسكرية كان هو على رأسها، تمكنت من محاصرته، فتظاهر بقبول الطاعة والمجيء إلى قرطبة واشترط حصوله مائة بغل وعدد من الأموال؛ ليسهل حمل متاعه عليها، ولكنها خدعة أراد بها تقوية جيشه، وبالفعل عاد مسرعاً وتحصن بقلعته «ببشتر» مرةً أخرى[52]، فتبعه الأمير المنذر وحاصره زهاء أربعين يوماً حتى شارف على التسليم، إلا أن الأمير توفي أثناء المحاصرة لحصن ببشتر سنة: 273هـ/886م، وكانت فرصة ثانية لنجاة ابن حفصون من الهزيمة المحققة[53].

50- ابن عناري، المصدر السابق، ج: 2، ص: 73، ظل الصراع قائماً بين فقهاء المذهب المالكي ورجال السلطة النافذة في دولة الأمويين حتى سقوط الخلافة ونيلهم الحُكم من خلال انقسام بلاد الأندلس إلى دويلات عُرفت بمرحلة (ملوك الطوائف)، وكان لهذه الفئة النصيب الأكبر، فتأثير هؤلاء -الفقهاء- يكون دائماً لدى من يكونون على قدر ضعيف من الثقافة والوعي، وهم رعاع الناس وعامتهم، فيستعملونهم كأداة طيعة في وقود الثورات والوصول إلى مآربهم الشخصية، وهذا دأبهم في كل الأزمان. أقصد البعض منهم، فالغالبية من الفقهاء الأجلاء حقيقة كانوا ولا زالوا منابر للتوعية والاهتداء وتفسير ما أنزل الله في كتابه العزيز، سيما مساهماتهم الجليلة في مواساة مجتمعاتهم وحل الإشكالات، فهم أقرب للآخرة من ملذات وزينة وحطام الدنيا الفانية.

51- ابن عذاري، المصدر السابق، ج: 2، ص: 61.

52- ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 31، 32.

53- ابن عذاري، المصدر السابق، ج: 2، ص: 118.

سيطرة ابن حفصون على الحصون والمدن ومحاصرة عاصمة الخلافة (قرطبة)

تزامن اتساع نطاق ثورة ابن حفصون مع تولي الأمير عبد الله بن محمد الإمارة بعد وفاة أخيه المنذر سنة: 273هـ/886م، مستغلاً في ذلك حالة التردي والضعف التي وصلت إليها بلاد الأندلس، فقد «تحيف النكث أطرافها واقتسمها الثوار، وكلب عليها الأشرار، ولم يبق منها إلا الاسم فوق منبر قرطبة»[54]، لاسيما تفرق الجيوش الرابطة في محاصرة ابن حفصون عندما تناهى إلى مسامعها وفاة الأمير المنذر، وهو ما دفع بالأمير عبد الله إلى عقد معاهدة مع ابن حفصون مقابل تولي الأخير حكم مدينة «رية» بالإضافة إلى قلعته الحصينة «ببشتر»، فأظهر حسن النية ثم انقلب كعادته واستولى على مدينة «استجة» وأخذ يعد العدة للزحف على عاصمة الإمارة قرطبة وإسقاطها هي الأخرى[55].

عمل عمر بن حفصون على التحصن في موقع قريب من مدينة قرطبة يُعرف بحصن «بلاي» poley؛ لكي يسهل الانقضاض على دار الإمارة، وبالفعل تمكن من خلاله من شن العديد من الغارات الخاطفة على مدن وقرى الإقليم، حتى هاجرها الكثير من قاطنيها، ولم يتوقف عن ذلك، «الليلة بعد الليلة، فيطرق من قرى القنبانية ويدنو من باب قرطبة يروع أهلها، ويضيم سلطانها، فانزعج لفعله هذا الأمير عبد الله وأنف منه، واستعزم على غزو الخبيث بنفسه، وقصده بقوته»[56].

أصبح ابن حفصون يسيطر على أغلب الحصون والمعاقل المحيطة بقرطبة من ناحية جنوب نهر الوادي الكبير حتى إن مدينتي جيان والبيرة – غرناطة – قد فر ولاتهما أمام زحفه المستمر، وفي الوقت نفسه أرسل حفصون إلى الأمير الأموي عبد الله يريد مهادنته والتسليم بما سيطر عليه، فوافقه على ذلك. وهذا

54- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 27.
55- مجهول المؤلف، أخبار مجموعة، ص: 125.
56- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 93-94.

يعكس مدى حالات الضعف والانهيار الذي أصاب الدولة الأموية، وبخاصةٍ في هذه الفترة بالذات من حكم هذا الأمير التي أصبحت سلطته لا تتعدى جدران قصره وبعض الأرباض المجاورة، وأصبحت عاصمة الإمارة الأموية قرطبة تنتظر لحظة سقوطها المحتوم ومن ثم انتهاء أمر الإسلام مبكراً.

وحتى لا يثير ابن حفصون ردات فعل المسلمين ضده كونه اتجه بقواته هذه المرة لإسقاط مقر سلطة الأمويين عمل على انتهاج سياسة أخرى من شأنها أن تبعد عنه هذه المخاوف، فتصدى لبعض الثائرين على الإمارة الأموية، للقضاء عليهم وإضفاء الشرعية على توسعاته من جهة، واستمرار خداع الأمويين من جهة أخرى، حيث تمكن من القضاء على سعيد بن مسنة المتحصن بحصن باغة لإرضاء أمير قرطبة، ثم لم يلبث أن اقتحم مدينة جيان وغرناطة، وكل الحصون والمواقع الواقعة جنوب نهر الوادي الكبير، وذلك سنة: 276هـ/889م[57].

رافق حالات الصراع والثورة الدائمة تدني مستوى الإنتاج الزراعي، وهو ما أثر على الوضع الاقتصادي ومن ثم انعكاسه على الجانب الاجتماعي بطبيعة الحال؛ فقد هاجر الكثير من الأهالي لمناطقهم نتيجة تعرضها للغارات وما رافق ذلك من سلب ونهب للممتلكات، فـ « فتنة ابن حفصون أتت على ذلك كله »[58]، لاسيما وأن البلاد أصبحت ميادين للقتال بين الثائرين عموماً والإمارة الأموية، فانعدم الأمن وأصبحت الحياة يسودها البأس والتشرد، ووصل الحال مداه حين تعرضت الأندلس لكوارث طبيعية من قحطٍ ومجاعة، »حتى انقطع الحرث وكاد أن ينقطع النسل »[59]، وتبع ذلك موجات من الجراد، أتت على ما تبقى من المزروعات، « إذ مات فيها خلق كثير من الناس »[60]، وهذه من إحدى السبل الاقتصادية التي أنتهجها ابن حفصون لشل حركة السيطرة لإمارة قرطبة وإعطاء المبرر الشرعي لإسقاطها أمام من تبقى من مؤيدها.

57- ابن عزاري، المصدر السابق، ج: 2، ص: 145، 146.
58- الحميري، المصدر السابق، ص: 79.
59- ابن عزاري، المصدر السابق، ج: 2، ص: 184.
60- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 343.

تحالفات ابن حفصون الداخلية والخارجية ضد الإمارة الأموية

لم يألُ عمر بن حفصون جهداً في الإطاحة بالأمويين؛ فإلى جانب زحفه المستمر نحو قرطبة وشن الغارات عليها انتهج سياسة جديدة تضمن له سرعة نجاح ثورته؛ بدأها من مرحلة القاعدة الشعبية التي تولاها المولدون، حيث أسهموا بنصيب كبير في استمرار الثورة، ثم الانتقال إلى مرحلة أخرى تتويجاً للسابقة، فتمثلت في التحالفات السياسية على المستويين الداخلي والخارجي، حيث ظلت طوال هذه السنين تفتقد لها، وهو جانب مهم لا شك، وهذا بيانها.

أولاً: على المستوى الداخلي

تميز تحالف ابن حفصون بنوعين من التحالف المزدوج، فعلى المستوى الداخلي نجده أحياناً يعقد تعهدات مع أمراء قرطبة ضد الثائرين الآخرين الذين وصل عددهم إلى خمسة عشر ألف ثائر في فترة من الفترات[61]، وذلك عندما يتم التضييق عليه، ويحتاج إلى زمن لإعادة ترتيب صفوفه وقواته، ثم يعود ويتنصل من تعاهده ويشرع في الثورة والانقضاض مرةٍ أخرى على سلطان قرطبة، كما مر بنا[62].

وأحياناً أخرى يعقد تحالفات مع الثوار الآخرين من عرب ومغاربة ضد بني أمية، ومما زاد من تهيئ الفرص لعقد تلك المعاهدات أن بلاد الأندلس قد تحولت إلى عصبيات، كلٌ حسب قوميته التي ينتمي إليها وشمل ذلك أغلب مدن البلاد وقراها.

هذه العصبيات/ المؤسسات الجديدة كانت قد ظهرت نتيجة للصراعات التي امتازت به المرحلة السابقة، مرحلة الولاة، ثم تطورت وأصبحت كياناً اجتماعياً وسياسياً عندما عمل أمراء بني أمية على إظهارها ودعمها حيث شمل

61- كان نصيب المولدين من هذه الثورات على مستوى البلاد ثلاث عشرة مدينة ثائرة.

62- يوضح ابن الخطيب سياسة ابن حفصون هذه بقوله: «وتقاضى العمر مع ابن حفصون حرباً وسلماً ومعاقدة ونكثاً إلى أن عاد رونق الخلافة وانقشع من الظلماء». أعمال الإعلام، ص: 28.

تنصيب من يتولاها من الأعيان، فمثلاً في مدينة أشبيلية التي يقطنها العدد الأعظم من النصارى والمولدين أسس بها الأمويون عصبيات عربية ضد بقية الأجناس الأخرى، فقد تولى رجالات أسرتي ابن حجاج وبني خلدون هذه المناصب وعملوا بدورهم على إذكاء نار الفتنة في المدينة، وهذا بدوره ينطبق على بقية المدن والأقاليم؛ ويكفي تصور الوضع من خلال الوصف الذي ذكره لنا ابن حيان بقوله: «واشرأبت نفوس الناس إلى فتنة، وتفاقم هذا الوقت ما بين العرب والمولدين والعجمة واستعملوا العصبية، وتميزت أحزابهم، بعضهم إلى بعض بكل جهة، فعادوا إلى الجاهلية، وتسافكوا الدماء ودانوا بالاستباحة وتخريب المسألة مع المولدين وتميزت إليهم النصارى الذمة فصار جميعهم إلباً على العرب، قائمين بدعوة ابن حفصون»[63].

تحالف ابن حفصون مع النصارى الإسبان ضد الأمويين

كانت ثورة عمر بن حفصون ذات مضمون اجتماعي واقتصادي غداة قيامها، فالتحم بها الكثير من الناقمين على بني أمية والعرب عموماً وخاصةً المولدين؛ لذلك عُرف زعيمها في بداية الأمر بحسن إسلامه ودفاعه عنه، حتى تنقاد إليه الناس ويتسع نطاق ثورته، فعمل ابن حفصون على بناء المساجد والإسهام في التبرعات المالية للمسلمين حتى أصبح يمثل «ركن العصبية للعجم والمولدين»[64]، ثم أخذت حركته بعداً دينياً آخر، أراد به تقوية جبهته ميدانياً وسياسياً فاعتنق النصرانية وغيّر اسمه إلى (صمويل)؛ وذلك بعد عشر سنوات من ثورته، أي سنة: 286هـ/899م[65]، في محاولة منه للتحالف مع العدو التقليدي النصارى الإسبان ضد المسلمين عموماً، بعد أن فشلت محاولاته بإسقاط قرطبة عديد المرات.

واضح هنا أن ابن حفصون من خلال إعلانه تنصُّرَه أنه يعاني ضعفاً في

63- المصدر السابق، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط: 1، 1990م، ص: 73. Cambridge History of Aslam, 2A, P. 415.

64- ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، ج: 2، القاهرة، ط1، 1963م، ص: 159.

65- ابن حيان، المصدر السابق، ج: 3، ص: 128.

حركته، فالتجأ إلى الملك الإسباني الفونسو الثالث زعيم مملكتي ليون واشتوريش للحصول منه على الدعم، ولكن عمله هذا جرّ عليه نقمة كبيرة من طرف مؤيده، فالمولدون عماد حركته قد انْفَضَّ الكثير منهم عنه، على حين انظم إليه وشجعه المستعربون أو العجم[66].

وبالنظر في قضية تنصر زعيم هذه الثورة نجده يشوبه الغموض في بداية الثورة، فالنصوص التاريخية وعلى مختلف اتجاهاتها تروي هذه الواقعة ويتفق أغلبها على أن ابن حفصون كان يمارس الطقوس المسيحية، ولكنه أظهر إسلامه للملأ خوفاً من انسحابهم منه حسب ما ذكر ابنه جعفر ابن حفصون، حيث «زعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره»[67]، ولكنه عندما تبين له فشل ثورته زعم أنه لا يزال على دين آبائه، حتى يجد الدعم والمساندة من المسيحيين عموماً، فـ«عوّل على النصارى وتقلد دينهم دين آبائه»[68]، فكانت ردات الفعل عنيفة ضده حيث انفصل عنه الكثير من حلفائه، «ورأى المسلمون في محاربتهم لابن حفصون نوعاً من الجهاد»[69]، فأعد له الأمويون حملات عسكرية شبه مستمرة عرفت بالشواتي والصوائف نالت من قوته، ومن ثمَّ تقهقره وضعفه.

ثانياً: تحالف عمر بن حفصون الخارجي ضد الأمويين:

مثلما عقد ابن حفصون تحالفات على المستوى الداخلي تطلب الأمر منه كذلك عقد تحالفات مع بعض الدول القائمة ببلاد المغرب، فهو كان قد اقترب من العدوة المغربية يوم غدا في إمكانه السيطرة على المنطقة الاستراتيجية، فقد كانت له مراكب بحرية في سواحل الجزيرة الخضراء للجواز لبلاد المغرب عادت عليه بالأرباح الطائلة ومكنته من مد علاقاته السياسية مع الأغالبة في أفريقية[70]، والأدارسة في فاس وأصيلا، ثم لم يلبث أن راسل الفاطميين وبايعهم عند قيام

66- ابن عذاري، المصدر السابق، ج: 2، ص: 187.
67- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 21.
68- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 32.
69- ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 210.
70- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 93.

دولتهم بالمغرب سنة: 297هـ/910م، إلا أن أحلافه الخارجية هذه لم يَجْنِ منها دعماً مؤزراً، فالفاطميون الذين استحوذوا على أقطار المغرب عدا بعض المَناطق بالمغرب الأقصى كانوا منشغلين ببسط سيطرتهم عليها فضلاً عن حملاتهم العسكرية نحو مصر[71]، فبلاد الأندلس تمثل لهم جناحاً مهماً من العالم الإسلامي، ومن السهل السيطرة عليه في تلك الآونة، ولكنهم فضلوا الاتجاه إلى الشرق للقضاء على خلافة بني العباس العدو التاريخي لهم، فالوجود الفاطمي بالمغرب شكل خطراً حقيقياً آخر لإمارة الأمويين الهزيلة، إلا أن قيام الثورات ضد الفاطميين وتولي قبائل زناته رفع لواء المعارضة أحال ربما دون توجههم لبلاد الأندلس على الرغم من إرسالهم الجواسيس لمعرفة أوضاع الأندلس عن كتب، وكان من بينهم الجغرافي ابن حوقل، سيما جواز الكثير من الأندلسيين إليهم بعد أن انتهى الأمن من البلاد وتحولها إلى ساحات القتال[72].

أصبح الربع الأخير من القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي ينذر بوقوع مأساة حقيقية ببلاد الأندلس، فالأمل قد تلاشى وخيم على البلاد التسليم بمصيرها المحتوم؛ فطول أمد الحروب ومقارعة الأعداء بات لا جدوى منه، فالثوار مستقلون بولاياتهم ومشتغلون بها، وضيق الخناق على دار الإمارة الأموية بقرطبة وأصبحت هي الأخرى تتهيأ للسقوط من طرف الخصم القوى والعنيد ابن حفصون، ولكن هيأ لها الله عز وجل من ضعفها قوة، وربما في قضية تنصر ابن حفصون أثره المباشر من تلاحم مؤيدة مع الأمويين، لأنهم أصبحوا يدركون مصيرهم المشؤوم إن وقعت هزيمتهم في دار لا يمثل فيها الإسلام قوة متماسكة، هذا فضلاً عن ما يكنه لهم النصارى الإسبان وممالكهم التي بدأت تتشكل في الشمال والشمال الغربي من بلاد الأندلس[73].

71- Ocallaghan, jf, A history of medieval Spain London, 1975, P219.

72- محمود مكي، التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، مكتبة الثقافة الدينية، ط: 1، 2004م، ص: 25.

73- نجد ذلك من خلال أحاديث الناس اليومية في كتب النوازل وغيرها، ينظر: ابن سعيد، المغرب في حُلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ط: 4، دار المعارف، القاهرة.

حملات الشواتي والصوائف وأثرها في ضعف ثورة ابن حفصون

لما ضاق الخناق على الأمويين في أواخر عهد الأمير عبد الله، وأصبح أمر الإطاحة بعاصمتهم قرطبة آتياً لا محالة من خلال الحصار الذي ضربه ابن حفصون عليهم، فقد استولى على المدن والقرى المحاطة بعاصمة سلطانهم، فضلاً عن تمركزه بالحصون، وفي مقدمتها حصن «بلاي» الذي ذكرناه آنفاً، قرّر الأمويون التصدي له والقضاء عليه، فالأمر قد أصبح مسألة بقاء من عدمه؛ لذلك عقد الأمير عبد الله العزم على توليه قيادة الجيش بنفسه سنة: 278هـ/892م، فخرج على رأس قوات بلغت أربعة عشر ألف مقاتل، والتقى بجيش ابن حفصون الذي بلغ تعداد قواته ضعف خصمه، والتقى الطرفان بموضع على نهر القوشكة وهو موقع قريب من حصن بلاي، وأسفرت المعركة عن هزيمة ساحقة للثائر، فتخلى عن مواقعة بما فيها حصن «بلاي»، ومدن «استجة وجيان وأرشدونة»، ويمكن عَدُّ هذا الانتصار الذي حققه الأمير عبد الله بداية التراجع لقوة ابن حفصون الذي تمركز مرةً أخرى في حصن ببشتر[74].

لم يتوان الأمويون عن مهاجمة ابن حفصون وغيره من المنشقين عن سلطان قرطبة، فانهالت عليه الحملات صيفاً وشتاءً بقيادة القائد أحمد بن أبي عبيدة، الذي «له على ابن حفصون وغيره من الثوار وقائع مشهورة، اتصف فيها معهم ...»[75]. ولكن انشغال الأمويين بمحاربة الثوار الآخرين أفسح المجال لابن حفصون لترتيب صفوفه، فاستولى على مدينة البيرة في السنة المقبلة، ثم طلب تسليمها للأمير عبد الله مقابل هدنة فوافقه على ذلك بشرط تسليم ابنه رهينة عنده[76]، ولم يمض وقت حتى خرق ابن حفصون عهده واستولى على مدن البيرة وأرشذونه وجيان، فخرج له الأمويون والتقى الطرفان في معركة حاسمة أسفرت مرة أخرى عن هزيمة منكرة لقوات ابن حفصون، وذلك سنة: 280هـ/893م[77].

74- ابن عذاري، المصدر السابق، ج: 2، ص: 186.
75- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص: 151.
76- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 106.
77- ابن عذاري، المصدر السابق، ص: 201.

استمرت الحروب دائرةً بين الأمويين وابن حفصون كما عهدناه، «حرباً وسلماً ومعاقدة ونكثاً إلى أن عاد رونق الخلافة وانقشع مع الظلماء»[78] بقية عهد الأمير عبد الله بن محمد الذي لم يترك مجالاً لخصمه الخطير كي يتحصن مرةً أخرى، ويستولي على المواقع والمدن المجاورة لدار الإمارة، ويمكن عَدُّ العقد الأخير من نهاية القرن الثالث الهجري فترة التراجع والضعف لثورة ابن حفصون، وذلك من خلال سير المعارك التي خاضها، وتخللتها الكثير من التنازلات والتعاهدات لصالح الأمويين، وبكلمة أعم انتقل من مرحلة الهجوم إلى مرحلة الدفاع ثم التراجع والتحصن في حصنه المنيع «ببشتر» الملاذ الأخير له.

عهد عبد الرحمن الناصر وانتهاء ثورة ابن حفصون

تولى عبد الرحمن بن محمد الإمارة الأموية خلفاً لجده عبد الله سنة: 300هـ/912م، وأوضاع بلاد الأندلس «جمرة تحتدم، ونار تضطرم، وقد عظم الشقاق والنفاق وارتجت الآفاق»[79]، مرتهنة بأيدي الثوار؛ فلم يفلح من سبقه من الأمراء الثلاثة في القضاء عليه طيلة هذه العقود، بل ازداد قوة واتساعاً لأسباب حاولنا إبراز بعضها ودراستها، فتكونت الدويلات المختلفة من العرب والمغاربة والمولدين، كلٌ حسب أماكن وجوده واستقراره ونفوذه، ولم يبق إلا دار الإمارة «قرطبة» التي عزم ابن حفصون على إسقاطها في العديد من المرات عن طريق محاصرتها والسيطرة على مواقع الدفاع الحائطة بها كما ذكرنا من قبل.

افتتح الأمير عبد الرحمن عهده بسياسة فريدة تنم عن إمكانية استرجاع السيطرة على المناطق الثائرة وزعمائها، ومن ثم إعادة مكانة الإمارة الأموية وهيبتها أيام جده المؤسس عبد الرحمن الداخل، وذلك عن طريق انتهاجه سياسة مزدوجة تمثلت في الترغيب والترهيب[80]، فلا غزو فقد أكسبته المراحل السابقة خبرة غنية في الوقوف عن مواضع الخطأ في كيفية التعامل مع الثوار، حتى طال أمد الحرب ووصل حال الإمارة يقترب من السقوط، ففضل عبد الرحمن عدم

78- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 28.
79- المصدر السابق نفسه، ص: 29.
80- ابن عزاري، المصدر السابق، ص: 158.

مقاتلة الخصوم دفعةً واحدة، ويبدو أن مرحلة الوعي بحقيقة مآسي الحال قد سادت بين مختلف طبقات المسلمين وفئاتهم، فتوحدت الرؤية التوافقية في هدف الوحدة والتصدي للمصير المشؤوم.

أصبح لا مناص من إنهاء حالات التشرذم التي اجتاحت كل أطراف البلاد ووسطها حتى إن الكثير من المستقلين في المدن والأقاليم عن دار الإمارة بقرطبة عندما راسلهم الأمير عبد الرحمن بقبول طاعته والاستسلام، وافقوه على ذلك واستجابوا له[81]، وكان في مقدمتهم محمد بن عبد الرحمن التيجيبي أمير سرقسطة، وتتابع بعد ذلك، ففتح مدن أشبيلية سنة: 301هـ 913م التي انفصلت هي الأخرى عن الأمويين لعقدٍ من الزمن وحالف حكامُها ابنَ حفصون مرات عدة، ومدن جيان والبيرة والجزيرة الخضراء التي كان يسيطر عليها ابن حفصون وأسهم من خلالها في قطع المؤن عن الأمويين بقرطبة كنوعٍ من الحصار الاقتصادي فضلاً عن تلقيه الدعم والمساندة من ولاة المغرب[82]، فعاد ذلك المنفذ البحري المهم، وأنشأ به الأمير عبد الرحمن «دار صناعة الأساطيل، ومنها تغلب خلفاء بني أمية على ما تغلبوا عليه من بلاد المغرب»[83]، وأصبحوا يحاربون الفاطميين منها، بل سيطروا على مدينتي «سبتة وطنجة» إبان مرحلتي الصراع بينهم وبين الفاطميين.

جنوح ابن حفصون للصلح والتسليم وبداية النهاية لثورته

أدى عودة بسط سيطرة الأمويين على كبرى حواضر الأندلس كأشبيلية وسرقسطة وغيرها من المدن، سيما عشرات الحصون والأقاليم إلى تراجع ميزان القوة، «فهادن طائفة (الأمير عبد الرحمن) وارتهن أخرى، واستنزل إلى حضرته أخرى، وغلب بالسيف أخرى، فاستأثر من بين قومه بالهدوء»[84]، فأغلب الثوار وجد في طريقة التسليم والمبايعة للأمويين بقائه في منصبه، كأمير لهذه المدينة أو

81- مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص: 154.
82- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 35.
83- الحميري، المصدر السابق، ص: 73.
84- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 36.

تلك، سيما العفو عما سبق عرضاً ناجعاً، بدلاً من الرفض ثم الحرب الخاسرة، فالحال قد تغير، والكل يرنو إلى الوحدة والتماسك أمام خطر النصارى الذي بدأ يلوح في الأفق.

لذلك لا نستغرب من إيثار ابن حفصون هو الآخر لطريق الصلح مع الأمير عبد الرحمن بعدما انتصر الأخير عليه واسترجع عدداً من الحصون التابعة له فوافقه، « وكتب له عهداً، أمضى ذلك له ولعقبه ما وفوا، وارتهن عنده ولده عبد الرحمن [ابن حفصون] »[85]، وذلك في سنة: 303هـ 916م.

احتفظ ابن حفصون بعد عقده الصلح مع أمير قرطبة بحصن ببشتر المنيع الذي جعله مقراً لسلطته وعدد مائة واثنين وستين حصناً آخر، وعلى الأرجح أن الأمير الأموي كان ملتزماً بسياسته الحكيمة في تعامله مع هؤلاء المناوئين وخاصة الخطيرة منها كابن حفصون، والمتمثلة في تأخير ومهادنة البعض ومباغتة البعض الآخر، حتى يكسب الجانب المعنوي أمام كل الناظرين لأعماله بتنازل الخصوم له وتسليمهم الكلي أو الجزئي لما كانوا يسيطرون عليه طوال هذه العقود، أو بالمرحلة التي سميت بالفتنة الأولى ببلاد الأندلس.

التزام عمر بن حفصون بالصلح ومعارضة أبنائه

إن ارتباط ابن حفصون بالعهد الذي جرى بينه وبين أمير قرطبة ليس من قبيل الوفاء بتنفيذ الاتفاقية؛ لأنه لم يسر على هذا النهج في السابق، وأهدافه الغاية تبرر الوسيلة، وإنما لمس تنامي قوة الإمارة واتساعها، ومن ثم لا سبيل له إلا الإذعان والمهادنة؛ ولكن أبناءه الذين خلفوه حاولوا انقاد سلطانهم المتهاوي أمام ضربات الأمويين؛ فهذا جعفر قاد عدة حملات ضد أمير مدينة أبدة بعد عام واحد من إقامة الصلح، الأمر الذي تصدى له والده عمر بن حفصون، بل قام بسجنه والتعذر لما حدث محاولاً بذلك عدم تعكير صفو العلاقة مع إمارة قرطبة التي منحته استقلالاً شبه داخلي في حكم ما تصالحوا عليه، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً حيث توفي عمر بن حفصون سنة 305هـ 918م، تاركاً وراءه مملكته التي

85- نفس المصدر السابق، ص: 32.

شاهد بدايات سقوطها، سيما نشوب الصراع بين مؤيدٍ أو معارضٍ لعملية الصلح مع الأمويين[86].

استغل أمير الأندلس عبد الرحمن وفاة خصمه الأكبر عمر ابن حفصون، وذلك بنشوب الصراع بين أبنائه الأربعة على ما تركه لهم أبوهم من ممتلكات، إلى جانب انتهاجه سياسة أخرى تمثلت في تعيين ممثلين جدد للمولدين والنصارى في المدن[87] والأقاليم التي كانوا يسيطرون عليها، الأمر الذي أدى إلى ازدياد مخاوفهم وانتشرت الشكوك فيما بينهم إلى درجة اغتيال جعفر ابن حفصون الذي خلف أباه من طرف خاصته متهمينة بعلاقاته المشبوهة مع أمير قرطبة، وذلك سنة: 308هـ/920م[88]، فخلفه أخوه سليمان إلا أنه لم يصمد كثيراً أمام قوات الأمويين، فسقطت حصونه (بكورة ريه والبيرة وجيان)، وفي الوقت نفسه صالح الأمير عبدُ الرحمن أخاه حفصاً، وتمكن أيضاً من تدبير مؤامرة أودت بحياة سليمان عن طريق ممثلي النصارى والمولدين في حصن « ببشتر » الذي لجأ إليه، وذلك في سنة: 314هـ 927م[89].

لم يبق أمام أمير الأندلس عبد الرحمن إلا حفص بن حفصون الذي تخندق في حصنه المنيع ببشتر، فهذا المعقل ظل قرابة خمسة عقود من عمر هذه الثورة مركزاً سياسياً وعقائدياً يستقبل المؤيدين والمقاتلين الذين وفدوا عليه من كل أطراف بلاد الأندلس، وبكلمة أعم أصبح ذلك الحصن قبلة لكل من يخالف الوجود العربي والإسلامي برمته في تلك البقاع، هذا فضلاً عمّا تمتاز به تلك الإقليم الواقعة فيه تلك الحصون من موارد جيدة وتحصينات طبيعية، مكنته من الصمود طوال تلك العقود.

وعموماً عمل عبد الرحمن على إنشاء عدة حصون أثناء قيامه بعمليات المحاصرة لحصن ببشتر آخر معقل خطير لثوار الأندلس؛ لقطع خطوط الإمدادات

86- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 142.
87- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص: 32، 33.
88- المصدر السابق والصفحة نفسها.
89- نفس المصدر، ص: 33.

والدعم، بالإضافة إلى تقديمه للصلح، فلم يجدوا إلا التسليم لذلك، وبالفعل تم تدمير تلك الحصون والمعاقل التي طالما خرج منها الأعداء، وقلصت من سيطرة سلطان الإمارة الأموية، وفي أحيان كثيرة جعلتها لا تتعدى العاصمة قرطبة وإرباضها، وحصل ذلك في سنة: 315هـ/928م[90].

هكذا أسدل الستار على حركة ثورية، بدأت صغيرة، ثم لم تلبث أن تطورت وأصبح سبيلها إسقاط دولة الإسلام مبكراً في تلك الأصقاع البعيدة، ولو لم تجد هذه الثورة من تعاظم الدعم والمناصرة من مؤيدها ومن مختلف شرائح المجتمع الأندلسي بما فيهم حتى العرب ما كان لها أن تستمر طوال هذه العقود وفشل ثلاثة من الأمراء الأمويين في القضاء عليها أو حتى إضعافها، حتى تولى الإمارة عبد الرحمن الثالث وتمكن بحزمه من تلافي أخطاء أسلافه في التعامل معها، حتى تمكن في نهاية المطاف من القضاء عليها، فـ« استقامت له الأندلس بعد نيفٍ وعشرين سنة من أيامه »[91]، ونال بحقٍ شرفَ تلقبه بالخلافة أسوةً بنظرائه العباسيين والفاطميين.

لقد كان لزعيم هذه الثورة عمر بن حفصون من الشراسة والخبث، بحيث إنه لم يأل جهداً إلا وأتى عليه، فقد وجدناه مناصراً ومتحالفاً مع الأدارسة والأغالبة، ومن بعدهم الفاطميون؛ ليضمن تقاطر المؤن والسلاح عليه، وكمنفذ خارجي مهم تحسباً لفقدانه من داخل الأندلس، فحقق بذلك انتصارات عدة، وحاز على مدن وأقاليم جديدة، ووصفت ثورته هذه في نظر البعض بأنها « حركة وطنية إسبانية استقلالية »[92]، ووصل به الأمر إلى حدّ تخليه عن الإسلام واعتناقه للديانة المسيحية، غير أن هذه الحادثة كانت وبالاً عليه، وذلك بتخلي لكثيرٍ من أنصاره وخاصةً المولدين المسلمين عنه وعدة هذه السابقة من بدايات التراجع والضعف، الأمر الذي استغله عبد الرحمن الناصر، وبدأ بمد جسور التعاون مع بعض أنصاره سواء على المستوى الداخلي والخارجي ممثلاً في بلدان المغرب العربي.

90- ابن حيان، المصدر السابق، ص: 214.

91- المقري، المصدر السابق، ج: 1، ص: 333.

92- بالنثيا، جنتالت، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، 1995م، ص: 321.

ثبت بمصادر البحث ومراجعه

أولاً: المصادر

1. ابن الأبار، أبوعبد الله محمد، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس القاهرة، 1982م.
2. الحشني، محمد بن حارث، قضاة الأندلس وعلماء أفريقية، نشر: السيد عزت العطار، 1952م.
3. ابن حزم، أبو محمد علي، جمهرة أنساب العرب، نشرها، لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001م.
4. الحميري، محمد عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط: 2، 1980م.
5. ابن حيان، أبو مروان حيان ابن خلف، المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق: شالميتا، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، كلية الآداب، الرباط.
6. ابن خاقان، أبو نصر الفتح، مطمح الأنفس في ملمح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق: محمد شوابكة، دار عمار، 1983م.
7. ابن الخطيب، لسان الدين، أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، ط: 1، 2004م.
8. ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1973م.
9. ابن خلدون، عبد الرحمن، العبد وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، لبنان، 1979م.
10. ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، ط: 1، 2004م.
11. ابن سعيد، علي بن موسى، المغرب في حُلى المغرب، تحقيق: شقي ضيف، ط: 1، 2003م، دار المعارف، القاهرة.
12. ابن عذاري، أبو العباس أحمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س، كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، لبنان، بيروت، ط: 5، 1998م.

13. ابن القوطية، أبو بكر محمد، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: عمر فاروق الطباع، مؤسسة المعاف، ط: 1، 1994م.
14. المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط: 1، 1998م.
15. المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998م.
16. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، نشره: محمد عزاب، دار الفرجاني للنشر، ليبيا، ط: 1، 1994م.
17. الونشريني، أبو العباس أحمد، المعيار والجامع المغرب عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس، إشراف، محمد صبحي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981م.

ثانياً: المراجع

18. إيمان، محمود محمد، حركات المعارضة في الأندلس خلال عصر الإمارة، بيروت، لبنان، 2005م.
19. بالنثيا، جنتالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، 1995م.
20. بيضون، إبراهيم، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1980م.
21. سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، 1997م.
22. السامرائي، خليل إبراهيم، وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط: 1، 2000م.
23. سرنلي، كليليا، ظهور الصقالبة وأثرهم في الأندلس، القاهرة، 1961م.
24. العبادي، أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1983م.

25. الفقي، عصام، تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الشرق، القاهرة، 1995م.
26. فيلالي، عبد العزيز، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب العربي، دار الفجر للنشر، القاهرة، ط: 2، 1999م.
27. لطف، عمر، تاريخ الصقالبة في الأندلس، «دراسة تاريخية جديدة»، بيروت، لبنان، ط: 5، 2007م.
28. مؤنس، حسين، فجر الأندلس، دار الرشاد، ط: 3، 2005م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية

29. Simonet, fransisco, History, de los mozarabes de Espana, vol, 1. Madrid, P363.
30. Cambridge History of Aslam, 2A, p415.
31. Ocallaghan, jf, A history of medieval Spain London, 1975, P219.

رابعاً: الدوريات

32. حوالة، يوسف أحمد، «المرأة في البلاط الأموي في الأندلس، دراسة في سيرتها السياسي والاجتماعي والثقافي»، «حوليات كلية الآداب الاجتماعية»، جامعة الكويت، العدد: 24، 2004م.
33. العبادي، أحمد مختار، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، «مجلة معهد الدراسات الإسلامية» مدريد، المجلد الخامس، 1985م.
34. مكي، محمود، التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1954م.